الإعجاز البياني في الخطاب القرآني
حجاجية القصص أنموذجا
مقاربة تداولية

Indicative miracles in the Quranic discourse Pilgrimage stories are a model A trading approach

الدكتورة: فريدة رمضاني
جامعة علي لونيسي -البليدة 2-
البريد الإلكتروني:tadaouli@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2019/05/07 تاريخ القبول:2020/02/22

الملخص:

لا شك أن الخطاب القرآني يملك من البيان و السحر اللغوي ما يملك به لب العقل البشري؛ فهو بالإضافة إلى أنه معجز في ألفاظه و تراكيبه و معانيه فإنه أيضا معجز في بيان حجاجية خطاباته حيث أظهرت الكثير من الدراسات المتخصصة في الإعجاز البياني للقرآن الكريم أنه قد بلغ في جمال نظمه و حجاجية قصصه ما لم يبلغه أبرع العرب فصاحة و أشدهم بلاغة و بيانا.

و بناء على ما سبق سنقف في مداخلتنا على بيان الجوانب المختلفة في الإعجاز البياني للخطاب القرآني محاولين الكشف عن ملامح إعجاز القصص التي أوردها الله عز وجل في الكثير من الآيات حيث تجلت أوجه كثيرة لإعجاز النظم القرآني من المستوى الأدنى المتمثل في المفردة وصولا إلى المستوى الأعلى المتمثل في الخطاب؛ و نحن إذا ما أمعنا النظر في وجوه نظمه فلن نجد تفاوتا و لا تباينا في معانيه.

الكلمات المفتاحية:

الإعجاز البياني- الخطاب- الحجاج- القصص القرآني- التداولي

الملخص بالإنجليزية:

It is undeniable that discour Koranic have eloquence and a charm linguistics that account the mind of humanity, so in addition to his miracles in there terms and structures and meanings is miracle in discour' s argumentations where more studies specialized in the miracles éloquence of Koran.

The Koran that achieved a beauty of système and the argumentation of his stories that the best speaker in the native arab s could not arrived his rethoric and éloquence.

Based on the forgoing we will stand in our intervention to explain different aspects of miracles in the discour Koranic that we try to disclose the miracle stories that same the God in more of Koranic verses, were manifest more facts of Koranic miracles from the lowest level represented by the lexicon down to the highest level represented by discour, and if we look closer in faces of its système we will never find diffrens in there meaning.

Keyword:
Éloquence miracles-discour-argumentation-Koranic miracles- pragmatics.

مقدمة:

لا تزال قضايا الإعجاز البياني في الخطاب القرآني، محط أنظار علماء اللغة والمتخصصين في مجال البلاغة و الدراسات التداولية و هذا على اختلاف مذاهبهم الفكرية و مساراتهم الاجتهادية حتى أن بعضهم تهافت للتأمل في معاني القرآن من الناحية التداولية سعيا منهم لاستجلاء مناقبه و خصوصيات نظمه و بيان إعجازه وهنا تكمن أهمية الموضوع الذي سنعالجه في هذه الورقة البحثية، إذ ما ينبغي تأمله حقا هي حجاجية قصصه التي نالت من فكر المفسرين و اللغويين اهتماما منقطع النظير؛ وبهدف فهم مقاصد الخطابات الحجاجية الواردة في القرآن الكريم ارتأينا أن نطرح الإشكالية التالية: ما هي وجوه الإعجاز البياني و الحجاجي في القصص القرآني و ما هي الاستراتيجيات الخطابية التي تضطلع به؟ و للوصول إلى ذلك استعنا بالمنهج التداولي المتمثل في المقاربة الحجاجية.

إن الخوض في مسألة الإعجاز في غاية الحساسية لكونها ذات أبعاد متشعبة و كثيرة؛ ولأن الكتابة فيها مسؤولية تقتضي التمعن و الفحص الدقيق لتأويلاتها؛ فإننا بحاجة إلى التحري و البحث العلمي الدقيق نظرا لخصوصية الخطاب القرآني الذي لا غرو أن المكانة التي يتبوؤها رفيعة تستأهل منا التعامل معها بما تقتضيه منزلة النص؛ و لن نبرح الحديث عن مسألة الإعجاز البياني في الخطاب القرآني حتى نتعرض لبيان صعوبة تحديد حجاجية القرآن الكريم دون الاستعانة بالتفاسير التي تدبرت معاني القرآن تدبرا حجاجيا و لذلك فإننا في هذه المداخلة سنحاول تناول موضوع الإعجاز القصصي من منظور تداولي اعتبارا لما كشفه المفسرون الأصوليون و البلاغيون لأن هؤلاء يتأولون القرآن و يتدارسونه على ضوء أحكام اللسان العربي الذي نزل به القرآن الكريم.

لقد شغلت مسألة الإعجاز القرآني كل العلماء فمنهم من بحث عن إعجازه العلمي ومنهم من اجتهد في بيان إعجازه اللغوي غير أن ما لفت انتباهنا و نحن بصدد الإبانة عن إعجاز قصصه تلك الدراسات التي استقصت أسرار إعجازه الذي لم ينته حيث لا يفتأ الدارسون للقرآن الكريم من الانبهار بدقة نظمه و عجيب تأليفه؛ و حتى لا نتعثر أثناء البحث عن جوانب إعجازه الحجاجي سنتوسل بما قاله السلف في كمال إعجازه البياني محاولين إعطاء الأولوية للعلماء الذين أدركوا فعلا قضية الإعجاز القرآني و من أمثال هؤلاء نجد عبد القاهر الجرجاني الذي يبث هنا و هناك في كتابه دلائل الإعجاز ملاحظات عميقة عن أسرار الإعجاز البياني و ما يميز أطروحات هذا الرجل هو الاعتماد على الكشف المتأني لمعاني القرآن و كذا جماليات خطاباته مراعيا نظم الحروف و نظم المفردات و نظم الكلم، و يتضح لنا من خلال الإطلاع على أفكار الجرجاني أن التناسق و الانسجام الموجودين في القرآن راجع إلى إعجازه البياني.

إن الصنع الذي أتقن به الخطاب القرآني لا يقل أهمية عن دقة و إعجاز معانيه التي تتلاءم مع ألفاظه مما يجعل السامع أو القارئ يعجز عن الإتيان بمثله و هذا هو الأمر الذي انشغل به جل العلماء الذين تطرقوا لقضية الإعجاز القرآني أمثال الباقلاني والقاضي عبد الجبار و الرماني و الجاحظ قبل أن تكتمل نظرية النظم التي بلورها عبد القاهر الجرجاني.

1-الإعجاز البياني في القرآن الكريم:

لقد تعددت أوجه الإعجاز القرآني وهذا ما يؤكده العلماء على مر العصور من العرب والأعاجم؛ و لندرك مظاهر هذا الإعجاز و تأثيره نورد ما انتهى إليه الإعجازيون من:" أن القرآن لم يكن معجزا بأخباره عن الماضي السحيق و المستقبل البعيد و لا بالمعارف العلمية عن نشوء الطبيعة و خلق الإنسان و لا بالنظام المتماسك الذي يجمع بين الفرد والجماعة، أو بين الدنيا و الآخرة، بل هو إلى جانب ذلك معجز بطاقات بيانية و ميزات بلاغية لعلها تجعله متجاوزا لكل مظاهر الأداء الفني البشري و محاسن القول الشعري العربي و اعتبر أن لا وجاهة للقول بالصرفة فيه كما يدعي النظام الذي يرى أنه بالإمكان أن يصنع العباد مثيل القرآن،"[1] و هنا يكمن سر إعجازه حيث تحدى الله عز وجل العرب المعروفين بالفصاحة بأن يأتوا بمثله في قوله تعالى:" وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ٢٣ [2]

في الواقع إذا أردنا أن نتقفى آثار الإعجاز البياني في القرآن الكريم الذي انبرت كل الأقلام الفذة للكتابة عنه، فإننا لن نرى شيئا من الألفاظ أفصح، و لا أجزل و لا أعذب من ألفاظه، و لن نرى نظما أحسن تأليفا و لا أشد تلاؤما و تشكلا من نظمه، و أما معانيه فكل ذي لب يشهد له بالتقديم في أبوابه، و الرقي في أعلى درجاته، و قد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام، إما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير الذي أحاط بكل شيء علما، و أحصى كل شيء عددا فخرج من هذا أن القرآن إنما صار معجزا، لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن منظوم التأليف، مضمنا أصح المعاني في توحيد الله تعالى، و تنزيه في صفاته، دعاء إلى طاعته و بيانا لطريق عبادته.[3]

ولا شك أن العرب كانوا يمتلكون قدرة خطابية تحرك المشاعر و العواطف و تستميل العقول و هي حقيقة تشهد لها أسواق عكاظ و بوادي البصرة و الكوفة؛ لقد برعوا في فنون البلاغة كلها كما برعوا في الخطابة شعرها و نثرها حتى وصلوا إلى ذروة البيان، لقد

بلغ العرب من الفصاحة مبلغا:" لم يعرف في تاريخهم من قبل، فإن كل ما وراءه إنما كان أدوارا من نشوء اللغة و تهذيبها و تنقيحها و اطرادها على سنن الاجتماع، فكانوا قد أطالوا الشعر و افتنوا فيه، و توافى عليه من شعرائهم أفراد معدودون كان كل واحد منهم كأنه عصر في تاريخه بما زاد من محاسنه و ابتدع من أغراضه و معانيه. و ما نفض عليه من الصبغ و الرونق؛ ثم كان لهم من تهذيب اللغة، و اجتماعهم على نمط من القرشية يرونه مثالا لكمال الفطرة الممكن أن يكون: و أخذهم في هذا السمت-ما جعل (الكلمة) نافذة في أكثرها لا يصدها اختلاف من اللسان، و لا يعترضها تناكر في اللغة؛ فقامت بذلك دولة الكلام؛ و لكنها بقيت بلا ملك، حتى جاءهم القرآن."[4]

إنها الحقيقة التي لا يمكن تجاهلها في بلاغة العرب و إعجاز القرآن الكريم لهم، فعلى الرغم من امتلاكهم دولة الخطابة و الشعر إلا أنهم عجزوا عن فهم سر فصاحة الباري عز وجل :" فلو أن القرآن غير فصيح، أو كانت فصاحته غير معجزة في أساليبها التي ألقيت إليهم، لما نال منهم على الدهر منالا، و لخلا منه موضعه الذي هو فيه، ثم لكانت سبيله بينهم سبيل القصائد و الخطب و الأقاصيص، و هو لم يخرج عن كونه في الجملة كأنه موجود فيهم بأكثر معانيه، قبل أن يوجد بألفاظه و أساليبه، ثم لنقضوه كلمة كلمة، و آية آية، دون أن تتخاذل أرواحهم، أو تتراجع طباعهم، و لكان لهم و له شأن غير ما عرف؛ ولكن الله بالغ أمره، و كان أمر الله قدرا مقدورا."[5]

و لم تكن دائرة الإعجاز القرآني منحصرة في عصر بعينه أو أمة مخصوصة عن غيرها بل إن هذا القرآن:"يكبر أن يكون حيا بروح عصره الذي أنزل فيه، فلا يستطيع من لا يقول بإعجازه أن يقصره على زمن الجاهلية أو يتعلل في ذلك، و هو بعد من الإحكام والسمو شرف الغاية و حسن المطابقة بحيث تتعرف منه روح كل أمة قد فرعت الأمم، واستولت على الأمد التاريخي، و نالت ما لا ينال إلا مع بسطة في العلم و زيادة في المعرفة بوجوه العمل، و فضل من القوة، و مع كمال المنزلة في كل ذلك و أشباهه من مقومات الأمة."[6]

و إذا كان الإعجاز البياني في القرآن الكريم يتجلى في إعجاز كلماته و روعة ترتيبه وبديع أسلوبه بما لا يدع الشك أنه ليس قول بشر فإن قضية الإعجاز تتجاوز اللغة إلى الأخذ بالألباب:" فالقرآن أعلى منازل البيان و أعلى مراتبه ما جمع وجوه الحسن وأسبابه، و طرقه و أبوابه: من تعديل النظم و سلامته و حسنه و بهجته، و حسن موقعه في السمع وسهولته على اللسان، و وقوعه في النفس موقع القبول و تصوره تصور المشاهد، وتشكله على جهته حتى يحل محل البرهان و دلالة التأليف، مما لا ينحصر حسنا و بهجة و سناء ورفعة"[7]

و لهذا ليس هناك حقيقة غير أن إعجاز القرآن من جهة البيان دليل على قوله تعالى:" لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ٤٢ [8] و من توهم غير ذلك فقد ظل سواء السبيل؛ لأن صورة العجز و الضعف الذي أصاب فحول الخطابة و الفصاحة العربية تكمن في:"استحالة أن يكون التحدي بالكلم المفردة أو معانيها التي هي لها بوضع اللغة فذلك متاح لأهل اللغة كما يبطل أن يكون النظم:"الإتيان بكلام في زنة كلمات القرآن بمقاطعه و مفاصله، على نحو ما يأتي الشاعر بقصيدة يعارض بها أخرى في وزنها وعلى رويها."[9]

لقد ظل العرب ردحا من الزمن و هم يتساءلون عن سر الإعجاز البياني في القرآن الكريم ذلك أنهم:" حينما سمعوا"القرآن" سمعوا كلاما لم يسمعوا مثله قط، و أنهم قد أحسوا بالعجز عن أن يأتوا بما يوازيه، و يدانيه، أو يقع قريبا منه، و هنا يسأل" الجرجاني" هذا السؤال:ماذا أعجز العرب من القرآن؟ و عن ماذا عجزوا؟ أعن دقة معانيه و صحتها وحسنها، أم عن ألفاظه؟ و يجيب"عبد القاهر" عن السؤال الثاني الذي يتصل باللفظ، لأن كلا من اللفظ و المعنى كيان واحد للصورة الكلامية، فليس عنده في الكلام لفظ و معنى، وإنما الذي عنده هو الصورة البيانية التي تؤلف بين اللفظ و المعنى، و لنستمع إليه حيث يقول:"أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه و مقاطعها، و مجاري ألفاظه و مواقعها، و في مضرب كل مثل، ومساق كل خبر، و صورة كل عظة، و تنبيه وإعلام، و ترغيب وترهيب، و بهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، و آية آية، فلم يجدوا في

الجميع كلمة ينبو بها مكانها، أو لفظة ينكرها شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح منها، وأعجز الجمهور نظاما و التئاما و إتقانا و إحكاما، لم يدع في نفس بليغ منهم موضع طمع حتى خرست الألسن أن تدعى و تقول."[10] و هذا أمر قطعي لأن الإعجاز البياني في أصله هو تمكن النقص و القصور من الإتيان بمثله في جميع جوانبه اللغوية و مظاهره البلاغية فالقرآن الكريم بلغ من الفصاحة ما لم يبلغه أفصح العرب قاطبة على تفاوت بينهم ومن مظاهر الإعجاز البياني في القرآن الكريم نجد:

أ-البيان الحجاجي:

يتجلى الإعجاز البياني للقرآن الكريم في أشكال كثيرة من بينها البيان الحجاجي الذي من الضروري التطرق إليه فهو يضطلع بوظيفة أساسية لطالما تميز بها الخطاب القرآني إنها الإقناع و هي آلية من آليات الحجاج؛ و لذلك فإن:"ما تردد من ظواهر لغوية في القرآن فغدا يمثل خصائصه الأسلوبية، ناجم في رأينا عما انطوت عليه هذه الظواهر من طاقة حجاجية، بحيث بات تكرر الظاهرة اللغوية الذي عنه ينشأ الأسلوب يعني المعنى الحجاجي و معنى هذا أن أسلوب القرآن حامل حجاجا، و حجاجه مجسد في أسلوب و لما كان الأسلوب هو التفرد و التميز و الخصوصية، و هي فكرة أسلوبية معروفة شائعة فإن الحجاج في القرآن لا يمكن إلا أن يكون حجاجا خاصا به دون غيره من سائر الخطابات."[11]

إن ما ينجلي عنه مصطلح البيان الحجاجي هو عنصران البيان و الحجاج فالأول هو ذو تركيبة نظمية لا يهتدي إليها إلا بليغ يمتلك حسن السبك و إحكام الصنعة أما الثاني فهو ذو حمولة عقلية تتمثل في الإقناع إذ به يحصل التصديق و به يتحقق البرهان، و لذلك من الضروري أن نشير هنا إلى أن الحجاج بترسانته من الأدوات والتقنيات و الاستراتيجيات الخطابية ما يجعله ملتصقا بالأساليب البيانية و هذا ما تظهره بجلاء و وضوح النظريات الحجاجية في الدراسات التداولية و لهذا قيل:" إن محسنا لهو حجاجي إذا كان استعماله، وهو يؤدي دوره في تغيير زاوية النظر، يبدو معتادا في علاقته بالحالة الجديدة المقترحة، و على العكس من ذلك، فإذا لم ينتج عن

الخطاب استمالة المخاطب، فإن المحسن سيتم إدراكه باعتباره زخرفة، أي باعتباره محسن أسلوب و يعود ذلك إلى تقصيره عن أداء دور الإقناع."[12]

وبهذا يكون البيان الحجاجي في القرآن ليس مجرد زخرفة قولية و إنما هو عملية بيانية مؤثرة في السامع أو القارئ و قد وضع الجاحظ يده على الجرح حين نادى بأن قضية ترتيب الكلام أو بحسب تعبيره سياسة القول، و علاقتها بالدلالة المؤثرة في المخاطب والحاملة له على الإقناع، هي الغاية التي يسعى إلى تحقيقها كل منتج خطاب، حيث يكون النظم و ترتيب أجزاء الكلام بطريقة معينة مقصودة نوعا من الاستدراج الذي يقود في النهاية إلى الإقناع بمقاصد الخطاب، فهو على هذا بمثابة الدليل والحجة."[13]

و عليه نخلص إلى أن البيان الحجاجي لا ينفك عن استمالة العقول و القلوب معا وهذا ما ذكره الجاحظ الذي قرر أن البيان تتنازعه وظيفتان هما: الوظيفة الفهمية التي تتجلى في بيان المعرفة، و الوظيفة الإقناعية التي تتضح في بيان الإقناع و لا يدل هذا إلا على أن وظيفة الخطاب ليس الإبلاغ فحسب و إنما الحجاج من أجل الإقناع.[14]

تأتي هذه الخلاصة لإثراء الفكرة التي دافع عنها باستمرار المتخصصون في البيان والحجاج حيث انعكست الصورة الحقيقية للبيان الحجاجي في قول صاحب كتاب البرهان في وجوه البيان إسحاق بن وهب الذي يقول لقد أجمع:" العلماء و ذوو العقول من القدماء على تعظيم من أفصح عن حجته، و بين عن حقه، و استنقاص من عجز عن إيضاح حقه وقصر عن القيام بحجته."[15]

إنه و إن اختلفت صور إعجاز البيان الحجاجي في القرآن الكريم فإن صرف النظر إلى وجوه الإقناع فيه تتعدى إعجازه في نظمه و تلاقي معانيه إلى بيان إعجازه القصصي الذي انبرت الأقلام للكتابة عنه؛ فلم يترك المهتمون بشأن الإعجاز في الخطاب القرآني قصة إلا و درسوها في جميع مستوياتها و من جميع وجوهها البيانية حيث اقتربوا من الأحداث السردية في كل زمان و مكان لا للبحث عن جماليات الأسلوب الرباني بل لإثبات البيان القصصي في القرآن الكريم.

ب- البيان القصصي:

إذا ما تأملنا بيان القرآن الكريم فإن أنظارنا ستتجه صوب البيان القصصي الذي يكشف لنا أسرار الإعجاز البياني في الخطاب القرآني؛ و أملا منا في أن نضطلع بوظائفه وألوانه البيانية فمن الضروري أن نحدد مكامن الإعجاز فيه ذلك أن القرآن الكريم ينفرد:" بأسلوبه المعجز في عرض قصص الأنبياء و الأمم السالفة، و يتميز هذا الأسلوب بخصائص جلية تعطي للنسق القصصي روعة و وضوحا و تكون لها آثارها العميقة في النفس،"[16] و لو نظرنا فقط إلى إحكام نظم القصص القرآني لوجدنا صورا بالغة الدقة؛ فالمعروف:" من طريقة القرآن أنه يتخير الأسلوب المناسب للفكرة، و ينوع في نظام الفواصل و القوافي، بتنوع الموضوع الذي يعرضه، و يتبع ذلك طول الفاصلة وقصرها و طريقة بنائها اللفظي من حيث السهولة و الخشونة و تخير الحرف الأخير الذي تختم به."[17]

إن أوجه البيان القصصي تظهر جلية في ذلك التناسق العجيب الذي تعرض به الأحداث و تصور به الشخصيات و تحكم فيه القصص و المواعظ؛ فلا ترى تباينا في حكمة و لا اختلافا في فكرة بدليل قوله تعالى: نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ٣ [18] لقد برع القرآن الكريم و:" هو ينتقل في عرض قصصه من غرض إلى غرض و من معنى إلى معنى من غير أن يستعمل شيئا من هذه الأساليب و إنما يأتي الكلام فيه و بعضه يستدعي بعضا، فآخر الآية أو الجملة يطلب ما يليها و يستدعيه فيأتي وفقا له و ينتج من ذلك إحكام الاتصال و شدة التداخل مما لا تشعر معه بفرجة أو انتقال، و هو من أظهر الخصائص"[19] البيانية في الإعجاز القصصي.

إن البيان القصصي لا يقتصر على ائتلاف نظام السرد و لا على استواء بناء الكلم وإنما بالإضافة إلى ذلك هو يحقق المقاصد الربانية من خلال بيان الدعوة المحمدية ولهذا فإن القصص القرآنية:" المتعددة و المتنوعة بشخصياتها و مواقفها و أزمانها وأماكنها وأسباب حدوثها و طرق تفاعلها و تواصلها بين هذه الشخصيات تقتضي

معالجة تحليلية لجميع هذه العناصر فضلا عن طبيعة نسجها و صياغتها البنيوية المشحونة بقوى دلالية لا تكشف أسرارها إلا بدراسة جميع المعايير و المرتكزات الداخلة في تصويرها و صياغتها."[20]

وبهذا يكون البيان القصصي من أبرز آيات الإعجاز البياني في القرآن الكريم فلا يخفى أن للبيان سلطة لفظية لم تخل منها قصة قرآنية و هذا ما لم يختلف فيه الباحثون إذ أدرك غالبيتهم:" تميز طبيعة القرآن و انفراده بكون معجزته هي الكلمة التي يعرفون مدلولها، ويأخذون و يعطون بمفهومها، و أن الإعجاز سر مضمر فيها، تهتدي إليه العقول، وتتعرف عليه البصائر،"[21] و لهذا انتقل اهتمام علمائنا المتقدمين و المتأخرين من محاولة إظهار إعجاز البيان القصصي إلى البحث عن كل أشكال الإعجاز البياني في الخطاب القرآني.

- بلاغة القصص في الخطاب القرآني:

المعلوم أن الخطاب القرآني يختلف عن كل الخطابات الأخرى؛ و لذلك فإن الدراسات التداولية المعاصرة تسعى للكشف عن أسرار بلاغته و بيانه دون أن تغفل عما وصل إليه العلماء الأوائل أمثال الجاحظ الذي يرى أن بلاغة الخطاب لا تتأتى إلا إذا توافق اللفظ مع المعنى أي:" لا يكون الكلام بليغا يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه و لفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك"[22] و هذا هو حال القرآن الكريم إذ يقول الله تعالى في محكم تنزيله: ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ٢٣ [23] غير أن أسرار البلاغة في الخطاب القرآني تتعدى التأثير النفسي و الوجداني الذي يخاطب القلب إلى التأثير الإقناعي الذي يخاطب العقل و هذا ما تجسد بالفعل في القصص القرآني.

تبدى لنا من خلال الحديث عن بلاغة الخطاب القرآني أن القصص الواردة في القرآن الكريم ذات وقع عجيب فهي تؤثر في القلب و العقل معا و زيادة على ذلك فهي تتراءى بوضوح في المواعظ و العبر التي تجمع كل هذا و تزيد و هذا ما تشهد به كتب الإعجاز

القصصي التي أفاضت في ذكر وقع القصص القرآني على النفوس و العقول، و ما يهمنا ههنا هو بلاغة القصص في الخطاب القرآني الذي يتوزع فيه على ثلاثة أصناف:[24]

الصنف الأول: قصص الأنبياء، و قد تضمنت دعوتهم إلى قومهم، و المعجزات التي أيدهم الله بها، و موقف المعاندين منهم، و مراحل الدعوة و تطورها و عاقبة المؤمنين والمكذبين مثل (قصة نوح، و إبراهيم، و موسى، و يوسف، و عيسى، و محمد) و غيرهم من الأنبياء والمرسلين، عليهم جميعا أفضل الصلاة و السلام.

الصنف الثاني: قصص قرآنية عن شخصيات و جماعات و أحداث تتعلق بحوادث غابرة، و أشخاص لم يثبت ثبوتهم، كقصة الذين أخرجوا من ديارهم و هم ألوف حذر الموت، وطالوت و جالوت، وابني آدم، و أهل الكهف، و ذي القرنين، و قارون، وأصحاب السبت، و مريم، و أصحاب الأخدود، و أصحاب الفيل و نحوهم.

الصنف الثالث: قصص تتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله محمد ﷺ كغزوة بدر و أحد في سورة آل عمران، و غزوة حنين و تبوك في سورة التوبة، و غزوة الأحزاب في سورة الأحزاب، و الهجرة، و الإسراء، و نحو ذلك.

3-حجاجية القصص القرآني:

يدلي القرآن الكريم بقصص الأولين و الآخرين بما يستدعي الإقناع و الوصول إلى الحجاج الذي هو غاية كل خطاب؛ و لهذا يجدر بنا في هذا المقام أن نورد بعض ما امتازت به القصص القرآنية من أغراض إقناعية فهي بالإضافة إلى ذلك تسعى إلى:" إثبات الوحي و الرسالة، و تحقيق القناعة بأن محمدا و هو الأمي الذي لا يقرأ و لم يعرف عنه أنه جلس إلى أحبار اليهود و النصارى، يتلو على قومه هذه القصص من كلام ربه.. وبيان أن الدين كله من عند الله و أن الله ينصر رسله و الذين آمنوا و يرحمهم و ينجيهم من المآزق و الكروب، من عهد آدم و نوح إلى عهد محمد، و أن المؤمنين كلهم أمة واحدة والله الواحد رب الجميع، و كثيرا ما وردت قصص عدد من الأنبياء مجتمعة في سورة واحدة، معروضة عرضا سريعا بطريقة خاصة لتؤدي هذه الحقيقة، كما في

سورةالأنبياء، حيث ورد ذكر: موسى و هارون، ثم لمحة موجزة عن قصة إبراهيم ولوط، وكيف نجاهم الله وأهلك قومهما، و قصة نوح، و جانب من أخبار داود و سليمان.."[25] وما إلى ذلك من القصص والأغراض المستخلصة التي لا حصر لها في القرآن الكريم.

و نظرا إلى خصوصية الخطاب القرآني – على اعتبار أنه خطاب إلاهي- فمن الأولى الظفر بدراسته و إدراك معجزاته و البحث في تركيباته الحجاجية و الإقناعية، ولأن القصص في القرآن الكريم متشعبة و كثيرة فسنقتصر على بعضها محاولين وضع أيدينا على مكامن الإعجاز فيها و هذا من خلال تسليط الضوء على ضروب الحجاج المختلفة التي وظفت في شكل أعجز البشر على اختلاف لغاتهم و مللهم و سنعرضها فيما يلي:

1- الحجاج في قصة إبراهيم عليه السلام:

ترتكز قصص القرآن الكريم على الحوار الذي يحمل في غالبه طاقة حجاجية وظيفتها الإقناع؛ و نجد ذلك موزعا بين أطراف متحاورة تعرض حججا و حججا مضادة و غالبا ما يتم ذلك في شكل محاورات تتفاعل فيها الشخوص و تتابع فيها الأحداث و بإمكاننا التمثيل لذلك من قصة النبي إبراهيم الذي كان موحدا لا يعبد غير الله تعالى أما من عاش بينهم فكانوا يعبدون الكواكب و الأصنام:" و كل من كان على وجه الأرض كانوا كفارا سوى إبراهيم الخليل و امرأته و ابن أخيه لوط عليه السلام و كان الخليل عليه السلام هو الذي أزال الله به تلك الشرور و أبطل به ذاك الضلال."[26]

لقد وظف إبراهيم عليه السلام الحجاج في المناظرة التي دارت بينه و بين من نازع الله و ادعى الربوبية حيث يرى المفسرون أنه ملك بابل النمرود الذي استمر ملكه أربعمائة سنة، و كان قد طغى و بغى و تجبر و عتا، و آثر الحياة الدنيا[27] يقول الله تعالى: أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ٢٥٨ [28] حيث ناظر الخليل هذا الملك المتجبر ودعاه إلى التعقل و عدم التزام موقف الشرك و ادعاء الإلوهية، فأبطل النبي عليه السلام:" دليله و بين كثرة جهله و قلة عقله و ألجمه الحجة و أوضح له طريق المحجة..

ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له حمله الجهل و الضلال و طول الآمال على إنكار الصانع فحاج إبراهيم الخليل في ذلك وادعى لنفسه الربوبية.[29]

لكن لما قال الخليل:" ربي الذي يحي و يميت قال أنا أحيي و أميت."[30] و هي الحجة التي كان يعتقد النمرود أنه سيدحض بها دعوة إبراهيم و هي دعوى باطلة و المقصود بذلك:" أنه إذا أتي بالرجلين قد تحتم قتلهما فإذا أمر بقتل أحدهما و عفا عن الآخر فكأنه قد أحيا هذا و أمات الآخر. و هذا ليس بمعارضة للخليل، بل هو كلام خارجي عن مقام المناظرة، ليس بمنع و لا بمعارضة بل هو تشغيب[31] محض، و هو انقطاع في الحقيقة. فإن الخليل استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وموتها على وجود فاعل ذلك الذي لابد من استنادها إلى وجوده ضرورة عدم قيامها بنفسها، و لا بد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة من خلقها و تسخيرها، و تسيير هذه الكواكب و الرياح و السحاب و المطر، و خلق هذه الحيوانات التي توجد مشاهدة، ثم إماتتها.[32]

و لهذا كان رد إبراهيم عليه السلام مصداقا لقوله تعالى:" قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ [33] وقول النمرود:" هذا الملك الجاهل أنا أحيي و أميت إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدة، فقد كابر وعاند.. فلم يقل شيئا يتعلق بكلام الخليل، إذ لم يمنع مقدمة و لا عارض الدليل."[34]

و ليحقق النبي إبراهيم عليه السلام صحة هذه الدعوة قال:" فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فات بها من المغرب" و هي حجة ثانية حاول من خلالها إبراهيم عليه السلام أن يدحض حجة النمرود فبهت و لم يستطع الانتقال إلى حجاج آخر و النتيجة كانت إخفاق الحجة عن أداء المبتغى من الحجاج إذ لا شك أن:" انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره و غيرهم، ذكر دليلا آخر بين وجود الصانع وبطلان ما ادعاه النمرود و انقطاعه جهرة : فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ [35] أي هذه الشمس مسخرة كل يوم تطلع من المشرق كما سخرها خالقها، ومسيرها و قاهرها وهو الله الذي لا إلا هو خالق كل شيء فإن كنت كما زعمت من أنك

الذي يحي و يميت فأت بهذه الشمس من المغرب، فإن الذي يحيي و يميت هو الذي يفعل ما شاء و لا يمانع ولا يغالب، بل قد قهر كل شيء، و دان له كل شيء، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا فإن لم تفعله فلست كما زعمت، و أنت تعلم و كل أحد أنت لا تقدر على شيء من هذا، بل أنت أعجز و أقل من أن تخلق بعوضة أو تنتصر منها، فيبين ضلاله و جهله و كذبه فيما ادعاه و بطلان ما سلكه و تبجح به عند جهلة قومه، و لم يبق له كلام يجيب الخليل به بل انقطع و سكت"[36] و لهذا قال: فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ٢٥٨ [37]

مما لا شك فيه أن الآيات التي سقناها قد بلغت ذروة الحجاج حيث انطوت على استراتيجية حجاجية حاول فيها إبراهيم عليه السلام التأثير في النمرود لكي يعدل عن ادعاء الألوهية مستخدما في ذلك خطة الاستدراج و هذا في سياق المناظرة التي دارت بينهما و قد أقام الخليل الحجة على خصمه بعد أن أوجمه عن الرد و بهذا يكون قد تحقق الاستدلال و وقع الإعجاز.

2- الحجاج في قصة يوسف عليه السلام:

لقد تناول القرآن الكريم قصة يوسف عليه السلام بشكل يوحي للسامع أو القارئ أنه أمام مشهد حقيقي حيث تتجسد الأدوار و تتجلى الصور أثناء الحوارات التي دارت بين الأب يعقوب عليه السلام و الأبناء و كأنها رأي العين؛ إنها إحدى القصص التي نال فيها سيدنا يوسف عليه السلام ألوانا من البلاء حيث تعرض لظلم الإخوة و جور السلطان.

لم يكن يعلم يوسف عليه السلام أن الرؤيا التي قصها على والده يعقوب عليه السلام ستفتح عليه أبواب الحسد حيث بين الله سبحانه و تعالى أن قصته من:" الآيات والحكم والدلالات و المواعظ و البينات ثم ذكر حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه له و لأخيه يعنون شقيقه لأمه بنيامين أكثر منهم و هم عصبة أي جماعة، يقولون فكنا نحن أحق بالمحبة من هذين:" إن أبانا لفي ضلال مبين" أي بتقديمه حبهما علينا ثم اشتوروا فيما بينهم في قتل يوسف أو إبعاده إلى أرض لا يرجع منها ليخلو لهم وجه أبيهم أي لتتمخض

محبته لهم و تتوفر عليهم، و أضمروا التوبة بعد ذلك فلما تمالؤوا على ذلك و توافقوا عليه:" قال قائل منهم..لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابات الجب يلتقطه بعض السيارة: أي المارة من المسافرين:" إن كنتم فاعلين" ما تقولون لا محالة فليكن هذا الذي أقول لكم فهو أقرب حالا من قتله أو نفيه و تغريبه فأجمعوا رأيهم على هذا فعند ذلك:"قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف و إنا له لناصحون أرسله معنا غدا يرتع و يلعب و إنا له لحافظون قال إني ليحزنني أن تذهبوا به و أخاف أن يأكله الذئب و أنتم عنه غافلون قالوا لئن أكله الذئب و نحن عصبة إنا لخاسرون."[38]

إننا حين نتتبع الحوار الذي دار بين إخوة يوسف عليه السلام و أبيهم و نمعن النظر فيه سنلحظ حتما حجة الإخوة في قتل يوسف و المتمثلة في الحب الشديد الذي خصه يعقوب بابنه؛ و بعد أخذ و رد توصلوا إلى نتيجة مفادها طرح الأخ في الجب و بهذا يخلوا لهم ود أبيهم غير أن أحد الإخوة استطاع إقناعهم بتركه لعلمه بكبير جرم قتله.

ولتحقيق مراد الإخوة اتبعوا طريقة الحجاج الذي تبدى من خلال توظيف اسم الفاعل وهو من المشتقات التي تعمل عمل الفعل:" و هو ما يجري مجرى الفعل في اللفظ والمعنى. فأما في اللفظ فإنه جار عليه في حركاته و سكناته. و أما في المعنى فدلالته على الحدث و على الزمن كما يدل الفعل،" [39] يقول الله تعالى في محكم تنزيله:" قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ١١ ؛"[40] حيث حاول أبناء يعقوب عليه السلام استخدام صيغة اسم الفاعل ليبينوا له أنهم ثابتون على العهد الذي قطعوه له باستئمانهم لأخيهم:" فاستعمالهم هذه الصيغة (لناصحون) في مقام ردهم على تردد أبيهم، إنما هو نوع من الحجاج المتضمن إقامة الحجة على المقابل، بأنهم له حافظون، وفي مقابل ذلك، نجد أن يعقوب-عليه السلام-يستعمل أيضا اسم الفاعل للدلالة على إمكانية وقوع الأذى ليوسف-عليه السلام- و بطريقة نيتها الكثير من الاستبطان."[41]

3-الحجاج في قصة نوح عليه السلام:

مرت السنون على قوم نوح عليه السلام و هم يعبدون الأصنام من دون الله فبعث فيهم نبيا يدعوهم لرسالة التوحيد لكن لم يؤمنوا به بل كذبوه و سخروا منه:" و قد

ذكر الله قصته و ما كان من قومه و ما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان و كيف أنجاه و أصحاب السفينة في غير ما موضع من كتابه العزيز."[42]

و قد ظل نوح عليه السلام يدعوا قومه و يجادلهم بالتي هي أحسن:" فذكر أنه دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة في الليل و النهار و السر و الإجهار بالترغيب تارة و الترهيب أخرى وكل هذا لم ينجح فيهم بل استمر أكثرهم على الضلالة و الطغيان و عبادة الأصنام والأوثان و نصبوا له العداوة في كل وقت و أوان و تنقصوه و تنقصوا من آمن به،"[43] ومن بين الحجاجات التي شدت انتباهنا في قصص النبي نوح عليه السلام قوله تعالى: أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ٦٢ [44] حيث أراد أن يبلغ قومه رسالة التوحيد التي أمر بها و هي الحجة الأولى أي الدعوة إلى الله و في المقابل نجد قومه قد أعرضوا عنها و كان جوابهم فيما قالوا: فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ٢٧ [45]

و عليه فإن قوم نوح عليه السلام لم يسمعوا الحجة بعقولهم بل أصروا على الظلال وأصدروا حجة ضعيفة بقولهم أن صاحب الدعوة مجرد بشر و هم به يكذبون:" وتعجبوا أن يكون بشرا رسولا و تنقصوا بمن اتبعه و رأوهم أراذلهم و قد قيل إنهم كانوا من أفناد الناس و هم ضعفاؤهم كما قال هرقل" و هم أتباع الرسل" و ما ذاك إلا لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق، و قولهم:"بادي الرأي" أي بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا روية و هذا الذي رموهم به هو عين ما يمدحون بسببه رضي الله عنهم فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى روية و لا فكر و لا نظر، بل يجب اتباعه و الانقياد له متى ظهر."[46]

كما نلحظ في قصص النبي نوح تدرجا في السلالم الحجاجية و هي نوع تتراتب فيه الحجج من الأدنى إلى الأعلى و مثال ذلك قوله تعالى: فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا١٤ [47] حيث ذكر

قومه بالحجة الأولى و هي استغفار الله تعالى حيث يغشي عليهم المغفرة و يكفر عنهم خطاياهم، و الحجة الثانية هي إدرار النعم وأعظمها إنزال الغيث من السماء فتنتعش الفلاحة و التجارة و تكثر بذلك النعم و الحجة الثالثة هي إمدادهم برزق وفير من مال وبنين و جنات و أنهار في الجنة؛ و هي حجج مرتبة ترتيبا تصاعديا بما يقتضي الإذعان والامتثال لأوامر الحق سبحانه؛ و ما تتسم به تلكم الحجج عدا التراتبية هو التدرج في الحجاج و هذا دليل قاطع على أن نوح عليه السلام قد استعمل كل الطرق الحجاجية المقنعة و الخطابات البلاغية البينة غير أن قومه كانوا معاندين مستكبرين عن رؤية الحق و لذلك قيل أنه:" تطاول الزمان و المجادلة بينه و بينهم كما قال تعالى: وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ١٤ [48] أي و مع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلا قليل منهم"[49] لا لضعف حجته و إنما لقصور عقول قومه الذين عموا و صدوا عن اتباع الحق.

3- الحجاج في قصة موسى عليه السلام:

لا مرية أن القصص القرآني حافل بالحجاج و لعل أبينه هي قصة موسى عليه السلام فهي مليئة بالعبر و العظات كما هي حال الخطابات المختلفة الواردة في القرآن الكريم؛ وفي هذا الصدد يذكر الله تعالى ملخص قصة موسى و يبسطها فيقول سبحانه: نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ٣ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ٦ [50]

لقد لخص الله عز وجل قصة موسى مع فرعون الذي تحرز أن لا يوجد حتى جعل رجالا و قوابل يدورون على الحبالى و يعلمون ميقات وضعهن، فلا تلد امرأة ذكرا إلا وذبحه أولئك الذباحون من ساعته و هذا كله حذرا من وجود موسى لكن القدر يقول إن هذا المولود الذي تحرز منه فرعون، و قتلت بسببه النفوس ما لا يحصى عددا، لا يكون مرباه إلا في داره و على فراشه، و لا يتغذى إلا بطعامه و شرابه في منزله، و هو

الذي يتباناه ويربيه و يتعداه و لا يطلع على سر معناه، ثم لا يكون هلاكه في دنياه وأخراه على يديه لمخالفته ما جاء به من الحق المبين.[51] و بهذا تكون قصة موسى عليه السلام من أبرز القصص الواردة في القرآن الكريم.

لقد واجه موسى عليه السلام فرعون الذي رباه و رعاه في حوار مفعم بالحجاج حيث ابتدأ موسى و أخوه هارون رسالتهما الدعوية إلى عبادة الله رب العالمين بقولهما: إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ [52] غير أن فرعون جحد حجة الرسالة و نفى ربوبية الله: فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ٢٤ [53]" و من ثم:" يذكر تعالى ما كان بين فرعون و موسى من المقاولة و المحاجة والمناظرة و ما أقامه الكليم على فرعون اللئيم من الحجة العقلية المعنوية ثم الحسية و ذلك أن فرعون قبحه الله أظهر جحد الصانع تبارك و تعالى و زعم أنه الإله : وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ٣٨ "[54] و هو في هذه المقالة معاند يعلم أنه عبد مربوب، وأن الله هو الخالق البارئ المصور الإله الحق كما قال تعالى: وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ١٤ "[55] و لهذا كانت حجة موسى عليه السلام قوية و لهذا قال فرعون له على سبيل الإنكار لرسالته و الإظهار أنه ما ثم رب أرسله:" و ما رب العالمين" لأن النبيين قالا له كما سبق و أن ذكرنا:" إنا رسول رب العالمين" فكأنه يقول لهما و من رب العالمين الذي تزعمان أنه أرسلكما و بعثكما فكانت حجة موسى عليه السلام جامعة حيث قال فيها: قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۚ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ٢٤ [56] و هي دعوة لفرعون كي يتفكر في خلق الله و هي آلية حجاجية يقصد من ورائها إبطال إدعاء الربوبية و هو استدلال حقيقي يجعل المدعي يفكر بالمنطق الذي أقيمت حجته و انقطعت شبهته.

الهوامش

1- محمود المصفار، سيميائية القرآن بين الحجاج و الإعجاز، شركة المنى، تونس، د.ت، ص 12
2- البقرة: 23.

3- بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1957، ط1، 223.
4- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1393هـ-1973م، ط 9، ص 157.
5- المرجع نفسه، ص 161.
6- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
7- عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ، الإعجاز البياني للقرآن و مسائل ابن الأزرق، دار المعارف، القاهرة، 1404هـ- 1984م، ط 3، ص 118.
8- سورة فصلت : 42
9- عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ، الإعجاز البياني للقرآن و مسائل ابن الأزرق، ص120.
10-محمد سالم محيسن، روائع البيان في إعجاز القرآن، دار محيسن،القاهرة، 1423هـ-2002م، ص 36.
11-عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، تونس، 2001، ط 1، ص 53.
12- حافظ إسماعيلي علوي، الحجاج مفهومه و مجالاته دراسات نظرية و تطبيقية في البلاغة الجديدة، عالم الكتب الحديث، الأردن، 1431هـ-2010م،ط1، ج 4، ص193-194.
13- علي محمد علي سلمان، كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج رسائله نموذجا، دار الفارس، الأردن، 2010، ط 1، ص 158.
14- المرجع نفسه، 159-160.
15- إسحاق ابن وهب، االبرهان في وجوه البيان، جامعة بغداد، العراق، 1967، ط 1، ص 223.
16-محمود السيد مصطفى، حسن عون، الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة، 1981، ط1، ص 67.
17- المرجع نفسه، ص 74.
18-سورة: يوسف: الآية 3.
19- محمود السيد مصطفى، حسن عون، الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، ص 83.
20- تارا فرهاد شاكر، اللسانيات الخطابية في قصص الأنبياء (آدم و إبراهيم و عيسى) عليهم السلام في القرآن الكريم، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2018،ط 1، ص 33.
21- محمد كريم الكواز، الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، جمعية الدعوة الإسلامية، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 2006، ص 19.

22-الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان و التبيين، تح:عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1998، ط 7، ج1، ص 115.

23سورة الزمر: الآية:13.

24- تارا فرهاد شاكر، اللسانيات الخطابية في قصص الأنبياء (آدم و إبراهيم و عيسى) عليهم السلام في القرآن الكريم، ص 33-34.

25- المرجع نفسه، ص 34-35.

26-ابن كثير أبي الفداء الحافظ الدمشقي، قصص الأنبياء من القرآن و الأثر، تح: صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت، 1424هـ-2003م، ص 118.

27- المصدر نفسه، ص 127.

28--سورة البقرة:258.

29- ابن كثير أبي الفداء الحافظ الدمشقي، قصص الأنبياء من القرآن و الأثر، ص 127.

30- سورة البقرة: 258.

31-المقصود بالتشعب هو الإصرار على المعصية.

32- المرجع نفسه، ص 127-128.

33-سورة البقرة:258.

34- ابن كثير أبي الفداء الحافظ الدمشقي، قصص الأنبياء من القرآن و الأثر ص 127-128.

35-سورة البقرة: 258.

36- ابن كثير أبي الفداء الحافظ الدمشقي، قصص الأنبياء من القرآن و الأثر، ص 128.

37- سورة البقرة: 258.

38- المرجع نفسه، ص 189.

39-آمال يوسف المغماسي، الحجاج في الحديث النبوي: دراسة تداولية، الدار المتوسطية، تونس، 1437هـ-2016م، ط 1، ص 180.

40-سورة يوسف: 11.

41- هادي غالي رضا الدخيلي، الدلالة الإيحائية في قصتي يوسف و موسى عليهما السلام، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2019، ط 1، ص 97.

42- ابن كثير أبي الفداء الحافظ الدمشقي، قصص الأنبياء من القرآن و الأثر، ص 66.

43- المرجع نفسه، ص 73.

44- سورة الأعراف: 62.

45- سورة هود:27.

46- ابن كثير أبي الفداء الحافظ الدمشقي، قصص الأنبياء من القرآن و الأثر، ص 73-74.

47- سورة نوح: 14.
48- سورة العنكبوت: 14.
49- المرجع نفسه، ص 75.
50- سورة القصص: 6.
51- المرجع نفسه، ص 233.
52- سورة طه: 48.
53- سورة النازعات: 24.
54- سورة القصص 38.
55- سورة النمل: 14.
56- سورة الشعراء، ص 24.